العرب والإسلام
في مرايا الاستشراق

الطبعة الأولى ٢٠١١

رقم الإيداع ١٩٥٨١/٢٠١٠
ISBN: 978-977-09-2920-9

جميع حقوق الطبع محفوظة
© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

بنسالم حمّيش

العرب والإسلام
في مرايا الاستشراق

دار الشروق

إهـــداء

إلى راحلين تركوا فراغـا كبيرا:

جاك بيرك، ماكسيم رودنسون، إدوارد سعيد...

المحتويات

الأهداء ٥

مدخل: المسألة الاستشراقية وتحديد مجال البحث فيها ١٣

الفصل الأول: مرايا الاستشراق، مركبات ومحطات ٢٥

١ ـ الاستشراق بين التوظيف السجالي والهواية الموسوعية..... ٢٥

٢ ـ الاستشراق كتخصص ذي سلطة معرفية ٣٤

الفصل الثاني: المستشرقون والعقد الاستعماري ٤٥

١ ـ في الاستشراق القطري (مثال البلدان المغرب) ٥٣

٢ ـ في الاستشراق الإسلامياتي ٦٦

الفصل الثالث: في مرآة الاستشراق التقليدي ٧٣

١ ـ عود إلى إرنست رينان كحالة عداء معلن ٧٦

١ ـ ١ ـ الخدعة الفيلولوجية ٨٠

٢ ـ ١ ـ الخدعة العلموية ٨٢
٢ ـ جيب وآخرون واستمرار النظرة الكينونتية ٨٧
٢ ـ ١ ـ «تفسير للتاريخ الإسلامي» ٩١
٢ ـ ٢ ـ «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» ٩٨
الفصل الرابع: في مرآة الاستشراق المجدد ١٠٩
١ ـ تحليل مضموني لمناظرة استشراقية (برانشفيك/ كاهين/ جاردي/ أرنالديز/ شاخت / هارتنر) ١١١
٢ ـ عن أهم وجوه الاستشراق المجدد ١٣٢
٢ ـ ١ ـ لوي ماسينيون ١٣٢
٢ ـ ٢ ـ هنري لاووست/ هنري كوربان ١٣٩
٢ ـ ٣ ـ جاك بيرك ١٤١
٢ ـ ٤ ـ ماكسيم رودنسون ١٥٠
٢ ـ ٥ ـ أندري ميكل ١٥٤
الفصل الخامس: المثقفون العرب ومرايا الاستشراق ١٦١
١ ـ مواقف الرفض المتشنج (البهي/ بن نبي/ الطيباوي) ... ١٦١
٢ ـ مواقف التحليلية النقدية ١٦٨
٢ ـ ١ ـ أنور عبد الملك وتأزيم الاستشراق ١٦٨

٢ ـ ٢ ـ هشام جعيط و«سيكولوجيا الاستشراق» ١٧٢
٢ ـ ٣ ـ عبد الله العروي وفون غرونباوم، أو التاريخانية ضد
الأنثروبولوجيا الثقافية ١٧٦
٢ ـ ٤ ـ محمد أركـون أو الإسلاميات التطبيقية كبديل
للإسلاميات الكلاسيكية ١٨٤
٢ ـ ٥ ـ إدوار سعيد والاستشراق، بين النقد والتمرد ١٨٩
خـاتـمـة عـامـة: ٢٠٣
أولًا: تحديث علاقتنا بتراثنا التاريخي ٢٠٦
ثانيًا: تحديث علاقتنا بالآخر ٢٠٧
ثالثًا: تحديث علاقتنا بالسياسة ٢١٠
ملحقان: ٢١٥
ملحق ١: سيرتان ذاتيتان: جاك بيرك المتوسطي ٢١٧
أندري ميكل بين الأيام والأعمال ٢٢٧
عن روجي غارودي، الآخر المقصي ٢٣٥
ملحق ٢: حوارات في المسألة الاستشراقية (مع جاك بيرك/
ماكسيم رودنسون/ هشام جعيط/ حسن حنفي) ٢٤١

* «إذا كان الإسلام معناه التسليم لله، فعلى الإسلام نحيا جميعا ونموت».

(چوته، *الديوان الشرقي*)

* «إن الإسلام لما أن قتل العلم، قتل نفسه بنفسه، وحكم عليها في العالم بدونية مطبقة».

(*إرنست رينان*)

* «مستقبل الإسلام لا ينبني إلا بتكيفه مع حياة الروح الأوروبية، وإلا فإن أيامه معدودة».

(*كارل هينرش بيكر*)

* «إن العرب يشعرون أنهم منبوذون خارج الانتماء السامي. وعليه فإن المصالحة ضرورية بين الإخوة الأعداء ـ من ذرية إسرائيل وإسماعيل ـ الذين يحملون رسالة جوانية، هي شهادة لغتهم كلغة مقدسة وتقوم أيضا كأداة بحث علمي مجرد. إن النخبة اليهودية فكرت وكتبت بالعربية طيلة العهد الوسيط. وهذا كله معطى جوهري».

(*لوي ماسينيون*)

* «إن الأمر ليس أقل من كونه «صدام حضارات»، فعودة الإسلام اليوم ردة فعل لاعقلانية من خصم قديم، مناوئ لإرثنا اليهودي ـ المسيحي ولما نحن عليه اليوم. إنه من الأهمية البالغة ألا نسقط ـ من جهتنا ـ في ردة فعل تكون هي أيضا لاعقلانية وقديمة ضد هذا الخصيم».

(*برنار لويس*، «جذور الغضب الإسلامي»، Atlantic Monthly، شتنبر ١٩٩٠)

* «إني لم أر أي تبرير معقول لمعاقبة العرب على الجرائم الهيتلرية، كما لم أر حجة لإقامة حركة توسعية في الأزمنة الحاضرة على ذكريات توراتية».

(*جاك بيرك*)

مدخل
المسألة الاستشراقية
وتحديد مجال البحث فيها

قليلة هي المراجعات النقدية الجادة للتراث الاستشراقي في أوساط المستشرقين[1]، وهي أقل لدى المفكرين والباحثين

---

(١) بالنسبة للقرن التاسع عشر يمكن التذكير بمؤلف لجول مول J. Mohl وآخر لجوستاف دوجا G. Dugat، اللذين سنشير إليهما في الفصل الأول من هذا البحث، وكذلك بكتاب لجامس درمستتر. Darmesteter *أبحاث شرقية Essais Orientaux* ط. أ. ليفي، باريس ١٨٨٣، وهو عمل في رد الاعتبار إلى الاستشراق الفرنسي واكتشافاته، وذلك قياسا إلى الاستشراق الألماني الذي يظن الناس «خطأ» ـ حسب هذا الباحث ـ أنه هو الأقوى والأسبق لكونهم لا يميزون الاستشراق عن الدراسات النحوية المقارنة، ميدان تفوق الألمان... أما لهذا العهد فيمكن ذكر أعمال سذرن ودانييل وورودنسون ووردنبورغ، التي سنرجع إليها في سياق عملنا، مضيفين إليها مقالات تركيبية حول نفس الموضوع لبيرك وچيب وآربري وكاهين وبيلا. غير أن كتاب وردنبورغ *الإسلام في مرآة الغرب* (ط. باريس ـ لاهاي ١٩٦٢) يلزم أن نقول عنه منذ الآن إنه رغم طرافته وجديته، لا يخلو من عيوب تكمن إجمالا في انقسامه إلى جانب وصفي وآخر تحليلي وما ترتب عن هذا من تكرارات واستطرادات تبعث أحيانا على الملل. هذا علاوة على

الموطنيين[1]. فعند أولئك قد نلاحظ حتى خلو الموسوعات المتخصصة وغيرها من مادة «استشراق» (*الموسوعة البريطانية* و*موسوعة الإسلام* التي لم تعوض عن هذا النقص إلا في طبعتها الثانية غير الكاملة)؛ هذا مع أن الكراسي الأولى لتدريس اللغات الشرقية تعود في الجامعة الفرنسية إلى ١٢٤٥، وأن المؤسسة الاستشراقية بمجامعها ومعاهدها ومجلاتها المتخصصة قد بدأت تظهر منذ أواخر القرن الثامن عشر وطيلة التاسع عشر. وقد نجد للمستشرقين عذرا في كونهم يؤْثرون عموما الانكباب المتواصل على مادتهم أو في تصورهم أن العمل النقدي والتقييمي موكول أساسا إلى المتلقين. أما مع باحثينا ومفكرينا، فإن قلة الدراسات النقدية الجادة للاستشراق تشكل ثغرة مكشوفة لا بد من العمل على سدها وشغورا بينا يجب ملؤه. وإذا ما عطلنا أو أضعفنا تفشي الموقف «التجاهلي» القائم على ادعاء أن أهل مكة أدرى بشعابها أو أن معرفة الذات في غنى عن عيون الغير ومراياه... إلخ[2]؛ فإن

أن منهج الكتاب الذي يرى صاحبه أنه ظاهرتي قد يثير أكثر من اعتراض أو تحفظ بحكم تأكيده على العامل البيوغرافي في تشكل العمل العلمي، ثم ممارسته لنوع من النسبوية الاسمية تقوده إلى عزل أعمال المستشرقين الخمسة المدروسين عن موضوعها الذي هو الإسلام، وذلك بدعوى استبانة نسقها الداخلي المكون من قصودها ومسبقاتها ومفاهيمها وقيمها المعتملة في شعور كل مستشرق على حدة(!).

(١) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب: «المثقفون العرب ومرايا الاستشراق».

(٢) بصدد نقد الموقف «التَجاهلي» لا يكفي القول: من جهل شيئا عاداه، بل لا بد من إضافة ماهو أدهى وأمر، وهو: من جهل شيئا خاطر بإعادة إنتاجه، مع احتمال المسخ والتشويه.

هناك من العوامل ما يبرر ذلك المطلب نظريا وعمليا، ونذكر منها على وجه التحديد:

١ـ على صعيد نظري عام، يمكن القول بأن موضوعة (أو تيمة) الآخر احتلت ـ ولا تزال في تاريخ الفكر كما في العلوم الإنسانية ـ مكانة مبرزة نظرا لارتباطها الجدلي بموضوعات أساسية ملازمة: الأنا/ الذات/ الهوية/ المرآة والصورة/ السلوك/ العلاقة... إلخ. والغير (مرادف الآخر والآخرين، وهو اسم جمع لا مفرد له كـ altrui أو autrui في اللاتينية والفرنسية) لابد له في واقع الاجتماع من أن يتبعَّض، فيصير الآخر (بالمفرد والجمع) الذي نعيش معه تجارب كالقرابة والصداقة والجوار، أو كالمنافسة والخصومة والعداء... وهذه التجارب وسواها تحدد بتنوعها واختلالها طبيعة العلاقات ودرجاتها، إنْ على صعيد الوعي أو في حقل السلوك والفعل. والعلاقات هي الوشائج والعرى التي تنسجها الاحتكاكات والتواصلات بين الأفراد والفئات داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات والثقافات. إن جودة تلك العلاقات أو سوءها وقبحها، غناها أو فقرها، تكافؤها أو اختلالها وعنفها؛ كلها سمات وعناصر يحفل بها مسرح الحياة والتاريخ، (وتزود الأجناس الأدبية والمشهدية بمواد خام تقوم فيها ثنائية الذات والآخر مقام المدار الدرامي والمحور المحرك). وبالتالي فإن موضوعة الآخر أو الغير تكتسي صفات الظاهرة الكلية (كما عرف مفهومها مارسيل موس)، أي أنها محطة شبكية متشعبة، تتقاطع فيها موضوعات متعددة ملازمة أو مكمّلة، وهي التي تهتم بها فلسفات الشعور

والوجود والفكر الأخلاقي والقيمي، علاوة على العلوم الإنسانية المعروفة... وللتذكير فقد كان للإسلام الثقافي «مستغربوه» (ولو أنهم من صنف مغاير) وحتى إغرابيوه exotes، وهم إجمالًا أصناف الأخباريين وأهل الجغرافيا والرحلات والسفارات، كانوا، بنحو من الأنحاء، مولعين بالغير من حيث ثقافاته ومقولاته وأنماط عيشه، كما كان كل منهم أثناء تنقله وترحاله مندمجًا في عملية عرض حساسيته ومزاجه وذهنيته في مرآة اختبار المكان والزمان، وتنوع المجتمعات والثقافات(١).

٢ ـ في السياق النظري نفسه، لنا أن نضيف أن دراسة الخطابات الاستشراقية يكفيها تبريرا أن تستمد مشروعيتها من كون الذات ـ أي ذات ثقافية ـ لا توجد وتحيا في مجال نظرها أو وعيها بذاتها فحسب، وإنما أيضا في أفق نظر الآخر ووعيه وما ينصبه من مرايا معرفية؛ فكلنا نكوّن ونحمل صورا عن غيرنا، نضعها قاعدة للحكم والتعامل، إن في حالة السلم والتعاون أو في حالة الصدام والتوتر. والصورة عموما من طبعها أن تروم الترسخ في «الكينونة» أو الجوهر؛ والجوهر ينزع إلى الترسب في محمولات أو خاصيات؛ والخاصيات، بدورها، تتراتب فتصير إلى خاصية واحدة مهيمنة قد يمحي معها، عند الحاجة الصراعية، التغير والتعدد ويضعف في ظل اعتمالها بُعْدُ التاريخ. وهكذا، فمن

(١) انظر دراستي: «حول إغرابية ابن بطوطة» في *أعمال ندوة ابن بطوطة*، طنجة ١٩٩٦.

أي زاوية نظرنا، لا بد أن يظل وعينا باقتصاد الصورة الاختزالي وبطابعها النسبي وعيا يقظا، وذلك حتى يبقى طلبنا للحقيقة متحليا بسمتي التجدد والانفتاح.

٣ ـ تبعا للسياق النظري المذكور، يتبدى الاستشراق بامتياز كنشاط بحثي ومعرفي حول الآخر (العالم العربي والإسلامي)، نشاط ظهرت إرهاصاته الأولى طوال القرون الوسطى، واستمر عبر محطات وتفاوتات حتى عهدنا هذا، فراكم في «موضوعه» أدبيات ضخمة، هي طبعًا مختلفة الغايات والمقاصد، متفاوتة الأهمية والقيمة من حيث المنهجية والدراية العلمية.

٤ ـ الاستشراق إذن واقع معرفي مارسته أوروبا على الشرق، كما ألمحنا، حتى قبل ظهور كلمة مستشرق لأول مرة بالإنجليزية في ١٧٧٩ ثم بالفرنسية في ١٧٩٩، وقبل تبني الأكاديمية الفرنسية لكلمة «استشراق» في ١٨٣٨. فالمستشرق، حسب تعريف أولي متداول، هو «العالم المتخصص في معرفة الشرق ولغاته وآدابه»، والاستشراق هو بالذات هذه المعرفة وقد تراكمت وترسخت في تقليد، وانتظمت في نسق له مقدمات ونتائج ويعمل بتقنيات ومناهج مخصوصة، ولهذه المعرفة تصورات يزود بها المستشرق مجتمعه، وهي، كما أحسن إدوارد سعيد تلخيص وظائفها:

«(أ) تحمل طابعه المتميز.

(ب) تدلل على مفهومه لما يمكن أو يلزم للشرق أن يكون.

(جـ) تناقش عن وعي آراء غيره عن الشرق.

(د) تعطي الخطاب الاستشراقي ماهو بأمس الحاجة إليه آنيا.

(هـ) تجيب عن بعض الانتظارات الثقافية والمهنية والوطنية والسياسية والاقتصادية للحقبة القائمة»[1].

٥ ـ المعرفة الاستشراقية معرفة دالة من كل وجوهها من حيث إن كل عناصرها تشهد لها في باب الفضل والإيجاب، أو تشهد عليها في مقام الخطأ والانخداع. وهي في كل الأحوال تشكل نصا متواترا هو بالضرورة مدخل أساسي للتعرف على عقلية الغرب وحساسيته، وبالتالي على أنماط صناعة مراياه وإنتاج صوره الغيرية وإيديولوجياته.

* * *

المستشرقون ـ إلا القليل منهم ـ يعطون الانطباع أنهم ينتمون لمجمع علمي له عصبيته ومناسكه وتقاليده. فالقاعدة العامة أن بينهم يخيم جو من التسامح والتعاضد وحسن الجوار. وحتى حينما يتعدون عن وعي أو لاوعي هذه القاعدة ليتبادلوا الانتقادات أو الطعون، فإنهم يحرصون على أن يبقى ذلك خاصا بهم كأعضاء أسرة واحدة. وهكذا يمكن لرينان أن يهزأ بعلم سليفستر دي ساسي الموسوعي متسائلًا عن فائدته وجدواه[2]، ويمكن لبيكر أن يعتبر

---

(١) إ. سعيد، *الاستشراق*، ط. لوساي، باريس، ١٩٨٠ ص ٣٠٥ـ٣٠٦، أو ص ٢٧٣ في الأصل كما سيأتي ذكره.

(٢) يكتب رينان: «عندما أشتغل بأعمال هذا الرجل (س. دي ساسي) المحترم جدا، فإني أميل دوما إلى مساءلته: ما الفائدة (à quoi bon)؟ ما الفائدة في معرفة العبرية

التاريخانية [الاستشراقية] بالية والموضوعية كوهم ليس غير[1]؛ ويمكن لوردنبورغ في دراسته عن خمسة مستشرقين مرموقين، *الإسلام في مرآة الغرب*، أن يحول إلى منهج نزعة إسمية أو نسبوية ويستعمله آمنًا مطمئنًا[2]... إلخ. ولكن، بمجرد ما يرتفع صوت من خارج الحرم المجمعي ليصوغ انتقادات أو يباشر بعض المراجعات المحرجة في حق المستشرقين، ترى هؤلاء يشهرون بتدخله فيما لا يعنيه، أو بجحوده ونكرانه للجميل. وتراهم يتذمرون ويعبسون أو يقابلونه بشتى صنوف التحديات... ومثل هذه الردود واضحة جدًا في الاستقبال السيئ الذي خص به كلود. كاهين وجابرييلي مقالة أنور عبد الملك «الاستشراق في أزمة»[3]، أو في انتقاد كتاب إ. سعيد، *الاستشراق*، من طرف برنار لويس[4]. فهذا المؤلف النقدي، الذي سنرجع إليه في الفصل الأخير ـ وهو الأول من نوعه، وعلى كل حال الأكثر جدية من سواه ـ يمكننا أن نقول عنه:

والعربية والسامرية والسريانية والكنعانية والإثيوبية والفارسية، ما الفائدة في احتلال مقام أول رجل في أوروبا له معرفة بآداب الشرق، إذا لم يبلغ درجة تكوين فكرة عن الإنسانية، وإذا لم يكن كل ذلك مدركا عنده من أجل غاية دينية عليا؟» (*مستقبل العلم، في الأعمال الكاملة*، كالمان ـ ليفي، باريس ١٩٥٨، جـ ٨، ص ٤١).

(١) «[...] نحن المحدثين، كما يكتب بيكر، لا بد أن تكون لنا شجاعة الاعتراف بنزعتنا الذاتية...» (يذكره وردنبورغ، *الإسلام في مرآة الغرب*، المرجع المذكور، ص ١٢٤.

(٢) راجع هامش ١، المرجع المذكور.

(٣) انظر مجلة Diogène، عدد ١٩٦٣ ٤٤ وعدد١٩٦٥ ٤٩.

(٤) انظر مجلة The New York Review of Books، يونيو ١٩٨٢.

حقا إنه مشوب بعيوب مسطرية ومنهجية، ونلحظ فيه، مع ماكسيم رودنسون، آثار «نظرية العِلمين الجدانوفية» وكذلك إحساسية مؤلفه المفرطة (over-sensitiveness)، مما يعني بكلمات أوضح أن إشكاليته المركزية تعاني من ثنائية (مانوية) صلبة مغالية، يكون هناك بمقتضاها شرق «جوهري» لا يعرفه إلا المشارقة ومن عانق نظرهم (وقضيتهم)، وشرق «ظاهري» أو مخلوق تنتسب حقيقته إلى مقولات وقبليات المستشرقين الغربيين... لكن، هل مثل هذه التصلبات والمغالاة كافية لتبرير رفض ذلك الكتاب أو الإعراض عن أفكاره كنتاج صادر عن باحث غير متخصص أو ليس من أهل الدار؟ ويقودنا هذا السؤال إلى آخر يطرح على العتبة التحضيرية لكل مقاربة تحليلية: ماهي، من حيث المشروعية المعرفية، شروط إمكان نقد الاستشراق؟

في مدخل دراستنا النقدية للمسألة الاستشراقية، تلزم الإشارة إلى صعوبة بحثية، تعود أساسا إلى طبيعة هذه المادة التي لا تشكل كلا متجانسا متراصا ولا عقدة في قصة تخضع لوحدة الزمان والمكان ووحدة الفعل، بل إنها مجموع حركات معرفية تتباين فيها الأزمنة واللغات، وتختلف مستويات مواضيعها وإدراكاتها وغاياتها. فتجنبا لهذه الصعوبة، ولا نقول لحلها، يجدر بالبحث الجدي حول الحركات الاستشراقية: **أولا**، أن يرصد فيها العينة التجريبية المحددة من حيث المكان والزمان واللغة؛ **ثانيا**، أن يقيم الإشكالات النظرية التي من شأن تلك الحركات ذات التمثيلية أن تصب فيها أو تقترب منها. على ضوء هذين الالتزامين: